- ١٠ -

اتساع رقعة الإسلام

لم يمض على صلح الحديبية إلا نصف شهر، أو أكثر قليلا أو شهر فى بعض الروايات، حتى كان النبى يتخذ خطوتين فى غاية الجرأة والشجاعة..

الخطوة الأولى: أنه قرر أن يرسل رسائل للملوك وحكام العالم من حوله بما فيهم كسرى وقيصر يدعوهم إلى الإسلام، واتباع رسالته التى جاءت لتخرج الناس من ظلمات الجهل والجهالة إلى نور الإيمان والمعرفة ..وبما فى هذه الرسالة الخالدة من مبادئ تعيد للإنسانية مسارها السليم.. وتأخذ الخط المستقيم.. فهى رسالة مكتملة العناصر..لا تغفل الروح على حساب المادة، ولا تغفل المادة على حساب الروح.. وهى بهذا التوازن كفيلة بخلق مجتمعات بالغة الرقى والحضارة..عارفة موضع خطاها فى الحياة.. وعارفة أيضا واجباتها تجاه دينها..

والخطوة الثانية: هو قرار النبى إخضاع يهود خيبر تحت الراية الإسلامية، حتى يأمن غدر اليهود الذين يكرهون الإسلام ونبى الإسلام كراهية شديدة، لا تقل عن كراهية أهل مكة للنبى، بل هم أكثر خطرا من مكة.

لقد أمن المسلمون تحرك مكة بعد صلح الحديبية، ولو لبعض الوقت إلا أن اليهود من الممكن أن يتحولوا إلى طابور خامس فيما بعد لو تحرشت القوى الكبرى فى العالم للرسالة، وعلى رأسهم الفرس أو الرومان خاصة بعد أن أرسل النبى رسله إليهم يدعوهم إلى الإسلام.. وهذا أمر بالغ الخطورة.. فإذا كان الفرس أو الرومان قد نظروا إلى مجتمع شبه الجزيرة العربية.. على انه قفر..وصحارى جرداء.. وقبائل متنازعة متنافرة لا خطر منها.. فقد تنبه هذه الرسائل كسرى وقيصر إلى هذه الدولة الفتية الجديدة،

التى أسسها على دعائم الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ.. وأنهم سوف يرون فى هذه الدولة الجديدة خطرا شديدا. وخاصة بعد أن خضعت له العديد من القبائل، وأوشك على توحيد البلاد كلها تحت راية الإسلام..

لقد أغمضت كلتا الدولتين عينيها عن هذه البلاد كما قلنا لأنها ليست بذات وزن، ومع ذلك فقد سقطت اليمن تحت حكم الفرس، أم البلاد المجاورة فكلها تخضع لإحدى هاتين الإمبراطوريتين الكبيرتين.. العراق تحت يد الفرس.. والشام ومصر والشمال الإفريقى تحت يد الرومان..والقوتان الكبيرتان رغم الحروب الكثيرة التى دارت رحاها بينهما، وأضعفت من قواهما إلا أنهما مازالت كل منهما تملك ترسانة عسكرية بالغة العنف والقوة، يسندهما حضارة عريقة.. وإن كان هناك عوامل فى الداخل فى كلا المجتمعين أضعفت قواهما..

ففى فارس صراع بين الوثنيين والمجوس..

وفى الرومان صراع بين المذاهب المسيحية المختلفة..

ومع ذلك.. فلكل دولة جهاز عسكرى مدرب، مزود برجال وعتاد لا يحصيه العد..

من هنا قلنا أن رسائل النبى إلى هؤلاء يدعوهم إلى إلاسلام كانت دعوة جريئة للغاية ..

والنبى عندما أرسل هذه الرسائل لم يكن يرسلها لمجرد أن يدعو هؤلاء للإسلام، حتى يثبت أن الإسلام دين عالمى بعث للناس كافة فى مشارق الأرض.. ومغاربها.. ولكنه يعرف بلا شك أن هذه الرسائل وراءها ما وراءها من خطوات محسوبة بلا شك.. فى أنه سوف يجابه القوى الكبرى.

والرسول كما عرفنا من قبل أثناء غزوة الأحزاب.. قد بشر المسلمين بأن الإسلام سيرتفع فوق كل البقاع.. فى الشام.. وبصرى.. واليمن..بشرهم

بذلك وهو محاصر فى المدينة.. والمسلمون يعيشون فيها تحت وطأة حصار رهيب.. فالأمر إذن كان بالغ الخطورة.. وإن كانت خطواته واضحة فى ذهن النبى الخاتم العظيم..

فالمجتمع الإسلامى الجديد قوة صاعدة.. وقوة روحية هائلة تدفع المسلم إلى دفع حياته رخيصة فى سبيل هذا الدين الحنيف حتى ينال إحدى الحسنيين..

وإذا كانت الصلاة التى يقوم بها المسلمون فيها سمو بأرواحهم وفيها نظافة لأبدانهم، وكان الصيام الذى فرض فى السنة الثانية للهجرة فيه سمو بالروح، ويعلم معنى التعاطف والرحمة بين أبناء الدين الواحد.. فقد كان لابد أن تنتهى عادة سخيفة كانت سارية بين العرب.. وهى شرب الخمر.. وكانت هذه العادة منتشرة بشكل لافت للنظر، بل أن بعضهم كان يذهب إلى الصلاة والخمر تتلاعب برأسه، ولا يدرى ما يقوله فى الصلاة !!

حتى أن عمر بن الخطاب دعا ربه أن يبين حقيقة هذه الخمر التى تذهب بالعقل، وتذهب بالمال..

..و..كان لابد أن تحرم الخمر.. وكان تحريمها على مراحل.. وقد اختلف المؤرخون فى سنة تحريم الخمر.. البعض قال إنها حرمت فى السنة الرابعة من الهجرة، والبعض الآخر قال أنها حرمت بعد صلح الحديبية..

وإذا كان عمر بن الخطاب قد رأى بثاقب نظره أن الخمر وهى مضيعة للعقل.. ومضيعة للصحة.. ومضيعة للمال.. وفى نفس الوقت لها من النتائج ما لا يحمد عقباه.. عندما تلعب الخمر بالنفوس.. ويأتى السكارى من الأفعال المشينة ما يحط من قدر النفس الإنسانية.. فما بالك بسكير يترنح وهو بين يدى الله ..فدعا الله أن يبين فى الأمر ما بها !

وجاء التحريم .. وإن كان التحريم.. جاء على خطوات..

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

.. وبعد ما نزلت هذه الآية.. ظل بعض المسلمين يتعاطونها .. ثم نزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

ولكن هذا الأمر النهائى لم يجعل الناس يقلعون نهائيا عن الخمر، إلى أن نزل الأمر الإلهى بالتحريم:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

والعجيب أن بعضهم.. وقد نزل التحريم النهائى للخمر، كان لا يروقهم ذلك.. فقد ألقوا الخمر وألفتهم.. وكان من الصعب عليهم التخلص من عادة سرت فيهم مسرى الدم فى العروق حتى أن بعضهم تساءل كيف تكون الخمر رجسا وقد مات بعض شهداء المسلمين فى المعارك الفاصلة كبدر وأحد وكان منهم من يتعاطى الخمر !.

ونزلت الآيات البينات:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

وبهذا التحريم أزيلت عادة من أسخف العادات التى عششت فى عقول الناس فى هذا العصر وما سبقه من عصور جاهلية ..

وها هو النبى العظيم يحول خطته الجريئة إلى واقع.. فأرسل النبى رسائله إلى ملوك العالم المعروف وحكامه برسائله يدعوهم إلى الدين الخاتم، وكان يختم رسائله بخاتمه الذى صنعوه له من الفضة ومكتوب عليه «محمد رسول الله».

والغريب أن هناك بعض المستشرقين حاول أن يشكك فى أن النبى قد أرسل رسائله إلى حكام العالم، ولا أعرف السر وراء هذا التشكيك.. هل لأنهم يريدون أن يقولوا أن الإسلام لم يكن يخطط له النبى أن يخرج خارج إطار شبه الجزيرة العربية وبالتالى فإن خلفاء النبى هم الذين حققوا هذه الانتصارات بدافع من التوسع عندما شعروا بقوتهم العسكرية..

وهذا وهم.. لأن النبى احتك بالروم فى حياته فى معركة مؤتة.. وكانت هذه المعركة بداية للانطلاق الإسلامى الساحق للعالم كله..

وهؤلاء المستشرقون قالوا.. أن هرقل أمر بالقبض على (أبى سفيان بن حرب) عندما كان فى تجارة إلى الشام، وأنه قبض عليه فى دمشق.. عندما أصدر أمره بالقبض على أى عربى من مكة ليعرف عنه أخبار النبى العربى الذى ظهر فى بلاد العرب بدين جديد.. وأن هرقل سأل عن هذا النبى أبا سفيان بن حرب فأخبره - كما تقول رواية لبعض المستشرقين - أنه بالفعل التف حول محمد الضعفاء والمساكين والفقراء، بينما عارضه أصحاب النفوذ والأقوياء من أهل مكة..

والمستشرقون يرون فى ذلك ليس ردا على رسالة النبى إليهم، ولكن هرقل قد جاءته الأنباء بظهور رجل يدعى النبوة، فأراد أن يعرف ..مجرد معرفة ما يدور فى هذه البقعة من العالم !.

وهذا كلام سخيف.. وفيه مبالغات أيضا.. فهرقل قد قابل بالفعل أبو سفيان.. وكان اللقاء كما تقول كتب السيرة الإسلامية فى غزة، وليس فى دمشق.. وقد أجمعت كل الدراسات التاريخية الإسلامية على أن النبى

بعث برسائله إلى حكام العالم.. وأوردت هذه المصادر التاريخية نصوص الرسائل، ومع من أرسلت.. وكيف قوبل هؤلاء الرسل من هؤلاء المرسل إليهم..

وكان حامل رسالة النبى إلى ملك الروم (دحية الكلبى) ..أما نص الرسالة فهى:

- « بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم.. السلام على من اتبع الهدى، أما بعد.. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين.. وإن تتول فإن إثم الاكارين عليك »..

وتقول الروايات الصحيحة.. أن هذه الرسالة عندما وصلت إلى هرقل، جمع مستشاريه، وأخبرهم بأمر هذه الرسالة، وطلب رأيهم. ولكنهم أظهروا له نفورهم من هذه الدعوة.. فما كان من هرقل إلا أن قال لأتباعه أنه كان يختبرهم فى مدى تمسكهم بدينهم !

وبعث النبى رسالة مع شجاع بن وهب، إلى الحارث بن شمس الغسائى صاحب دمشق..

وكان نص الرسالة:

-« سلام على من أتبع الهدى، وآمن بى وأنا أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده ولا شريك له يبقى لك ملكك »..

وعندما جاءته الرسالة قال:

- «لن ينزع ملكى أنا سائر إليه »..

ولم يعتنق الإسلام..

وبعث برسالة إلى كسرى، وكان حامل الرسالة عبد الله بن خزاعة السهمى.. وكان معه رسالة فيها:

-« بسم الله الرحمن الرحيم. . من محمد بن عبد الله إلى كسرى عظيم فارس. . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا. . أسلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك أثم المجوس ».

وقابل كسرى هذه الرسالة بفظاظة. ومزق رسالة النبى ﷺ . .وقد دعا عليه النبى ﷺ عندما علم منه فعلته الكريهة قائلا:

-« مزق الله ملكه ».

وقد استجاب الله دعوة رسوله، فلم تمض سوى أيام حتى قتل كسرى ابنه شيرويه.

وأرسل النبى ﷺ رسالة إلى النجاشى ملك الحبشة حملها عمرو بن أميه الضمرى يقول له فيها:

-« من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة سلام على من أتبع الهدى أما بعد: فأنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن. . وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده. وانى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته وأن تتبعنى، وتوقن بالذى جاء لى . . فأنى رسول الله وأنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى ». .

ويقول الرواة أن النجاشى استقبل الرسالة استقبالاً حسناً، وانه قال:

-« أشهد أنه النبى الأمى الذى ينتظره أهل الكتاب وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل. . ولكن أعوانى من الجيش قليل. .فانظرنى حتى أكثر الأعوان وألين القلوب. .».

ويقول بعض الرواة أيضا أنه أسلم..

وكذلك أرسل النبى رسائل إلى أمير بصرى وكانت تابعة للروم.. وكان الرسول الحارث بن عمير الأزدى، وكذلك إلى ملك البحرين المنذر بن سارى حملها العلاء بن الحضرمى وقد أسلم ملك البحرين، وأرسل للنبى ﷺ رداً لخطابه قال فيه:

-« أما بعد: يا رسول الله،فأنى قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام، وأعجبه ودخل فيه،ومنهم من كرهه وبأرضى مجوس ويهود فأخذت فى ذلك أمرك.»..

وكان رد الرسول:

-« من محمد بن عبد الله إلى المنذر ساوى.. سلام عليك، فأنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد فأنى أذكرك الله عز وجل، فإن من ينصح ينصح لنفسه، وإن من يطع رسلى، ويتبع أمرهم فقد أطاعنى، ومن نصح لهم فقد نصح لى.. وأن رسلى قد أثنوا عليك خيرا، وإنى شفيعك فى قومك فاترك المسلمين وما أسلموا عليه.. وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم عملهم، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية.. وإنك مهما تصلح فلن نغيرك من عملك والسلام..

وبعث النبى حاطب بن بلتعه إلى المقوقس عظيم مصر، ولم يسلم هذا الرجل ولكنه قابل رسول النبى مقابلة حسنة وأرسل معه هدايا وجاريتين (مارية القبطية واختها سيرين)، ومارية هى التى تزوجها النبى ﷺ، وأنجب منها ابنه إبراهيم، وسيرين تزوجها الشاعر حسان بن ثابت وقد أرسل معهما طبيبا.. وهذا الطبيب أعاده النبى إلى مصر قائلا كلمته المأثورة:

-« لا حاجة لنا بك..نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا أكلنا لا نشبع».

كما أرسل بعض الهدايا الأخرى..

كما أرسل النبى رسالة إلى ملكى عمان جعفر وعبد الخليدى مع عمرو ابن العاص.. وقد أسلما كذلك بعث بكتاب إلى ملك اليمامة هوذه بن على، مع سليط بن عمرو العامرى.. ولكن هذا الرجل أراد أن يشركه النبى فى بعض الأمر.. وقد غضب النبى من هذا الرد.. وقد مات هذا الرجل بعد فترة وجيزة..

وواضح أن هؤلاء الرسل لم يذهبوا كل إلى الوجهة الذى وجهه إليها رسول الله ﷺ فى وقت واحد.. ولكن على فترات.. بعض هذه الرسائل أرسلت قبل غزوة خيبر، وبعضها الآخر أرسل بعد هذه الغزوة..

وأراد الحارث الغسانى أن يهاجم النبى فى المدينة، وطلب من هرقل السماح له بالزحف نحو المدينة، ولكن هرقل رفض ذلك، فقد جاءته رسالة من النبى ﷺ، وكان هو فى نشوة انتصاره، فقد حقق نصرا على الفرس، فقابل رسول رسول الله مقابلة حسنة.. وبالتالى لم يسمح للحارث بالقيام بمغامرة عسكرية !.

ولم يكن هرقل يعرف أن اتباع هذا النبى سوف يجتاحون بلاده، بعد سنوات قليلة، ويضعون نهاية أبدية لحكم الرومان فى بلاد الشام.

* * *